**قسم التاريخ و الآثار**

**مقياس منهجية البحث التاريخي**

**السنة الأولى ماستر تخصص : المغرب العربي المعاصر**

1. **د : سفيان لوصيف**

***المؤرخ الجزائري و تحديات كتابة التاريخ الوطني: الحصيلة و التقييم***

**المؤرخ و إشكالية الكتابة التاريخية:**

تعنون مجمل الرسائل الجامعية المنشورة و غير منشورة عناوينها بـمساهمة، هل هذا يؤشر موضوعيا على أن ملامح و معالم الصورة لم تكتمل بعد، و أن تقاليد البحث العلمي لا تزال في منعطف الطريق، و تتقلب بين مسارات البحث عن هوية تاريخية وطنية ؟ بمعنى آخر هل عمر حصيلة الاستقلال غير قادرة على وضع قاطرة البحث التاريخي على سكته الصحيحة ؟

يستشف من المحاولات الداعية إلى إعادة كتابة تاريخ الجزائر أنها تروم تكوين أو بلورة مدرسة وطنية لكتابة التاريخ، هل حصيلة التراكم الحالي يخول إمكانية الحديث عن مدرسة وطنية أمام خطاب تاريخي لا يزال يعيد إنتاج نفسه قلبا و قالبا ؟ أم أن السعي إلى بلورة مدرسة وطنية مجرد أمان غارقة في عمق المستقبليات ليس إلا ؟

يستخلص من محاولات المؤرخين تلك الدعوة إلى بناء و ترصيص خطاب تاريخي يتسم بالتنوع و الاختلاف، و يستمد أصوله و آلياته من صميم الواقع مع الانفتاح طبعا على المناهج الحديثة التي أفرزها تطور حقول العلوم الإنسانية، هل البناء و الانفتاح يتبلوران بمعزل عن تحديث عقلية المجتمع ؟ أو بكلمة أكثر وضوحا هل عقلية المجتمع تملك من وسائل التحدي و الاستجابة ما يؤهلها لترسيخ مرتكزات بديلة في سيرورة الخطاب التاريخي ؟

**معوقات الكتابة التاريخية:**

هناك توظيف للمؤرخين فلا غرابة و الحالة هذه أن يتستر المؤرخ الرسمي على الحقائق، و في أحسن الأحوال يغدق من الإطراء على المحاسن و لا يبالي بالمآخذ و المثالب، و على المستوى المؤسسي كان البحث التاريخي رهينا لمختلف المؤثرات، عاقته عن التقدم مثل ضعف الوسائل و ندرة الباحثين المتمرسين، و تشتت المصادر فضلا عن أن التوجه كان لتصفية آثار الاستعمار و العمل على تركيز البناء المادي للمجتمع، فحصيلة البحث التاريخي كانت متواضعة، لكن التزايد الكمي و النوعي نما بصورة ملحوظة، و هي ثمار مجهودات فردية تمت و تتم في غياب الظروف المطلوبة من حيث التجهيز و الاعتمادات المطلوبة.

تعطى للفرد الأولوية المطلقة، و الأثر الحاسم في صيرورة الفعل التاريخي، بل و يتمظهر داخل نسق الحدث التاريخي كحقيقة ثابتة بوصفه المركز و العقدة من شبكة العلاقات النشطة، الأمر الذي أضفى على منحنيات المتن المصدري خاصية، و لم يقف المتن المصدري عند حدود إحاطة البطل بهالة من القداسة بل تعداه إلى عرض أوصاف دقيقة عن الملامح الجسدية و الخطابية.

ظهر توجه في التأليف التاريخي خلال العقود الأولى بعد الاستقلال الجزائر اندرج في سياق ما يعرف بالتاريخ الوطني، و هو اتجاه يرمي إلى تخليص التاريخ من الأفكار و التوجهات الاستعمارية و ما أسسته من تصورات مغلوطة، و كان بذلك مرحلة ضرورية لتصفية الحساب مع إرث المدرسة التاريخية الاستعمارية، و للتمهيد كذلك لمرحلة أكثر تطورا هي كتابة التاريخ الوطني من الداخل، و لا تزال ظلال هذه المرحلة مسيطرة على جيل من المؤرخين، حتى أضحى من علامات الوعي لدى المؤرخ المعاصر المناداة بتحرير التاريخ من النزعة الاستعمارية، بينما يعتبر هذا النداء أقل أهمية من نداء تحرير التاريخ من الأساطير، فالمجتمع قبل أن يطالب بتحرير تاريخه من التصورات الاستعمارية عليه أن يربي أجيال مؤرخيه على استخدام الذهنية العلمية في تناول قضاياه، هذه الذهنية هي الكفيلة بتحريره و خلق تصور تاريخي جديد.

هي تفاصيل و جزئيات انحشرت و انطمست في ثنايا تلافيفها حياة المستضعفين في الأرض و الفئات المنتجة من عامة الناس التي ترد عرضا، و في سياق الأحداث.

- غلبة إيديولوجية السلطة الحاكمة بين دفتي المتن المصدري التقليدي حيث حرص على مراقبة الإنتاج التاريخي نظرا لحساسيته التاريخية.

- تطابق و تجانس محتوى النصوص المصدرية القديمة، و هو تطابق تتمظهر جوانبه في إعادة استهلاك نفس الأخبار و الروايات حول حادثة أو واقعة معينة بطريقة اجترارية حرفية، عدا بعض الاختلافات الطفيفة و الهزيلة التي تمس التفاصيل.

مهما يكن من أمر القضايا و الإشكالات التي تتخلل المصادر التقليدية القديمة فإنها تبقى في نهاية المطاف السند المرجعي الذي لا غنى عنه للمهتم التواق إلى بلورة تصور أولي، أو سبك فرضية معينة، كما أن محدودية و قصور قيمتها التاريخية لا تعني ضرورة الطعن في نسغها المنهجي و إقصاءها من حلبة البحث التاريخي، بل ينبغي الحفر و النبش في تجاويفها لاستبطان ما تختزنه من معطيات اقتصادية و اجتماعية على قلتها مع تفادي السقوط في دوامة التأويل البعيد الذي يفضي إلى خلاصات مبتورة، و استنتاجات ناقصة.

**حصيلة الكتابة التاريخية:**

و من الضروري أن نسأل ماذا كتب عن تاريخ الجزائر من طرف الأقلام الجزائرية ؟ لأن هناك حديثا يدور حول المدرسة الجزائرية للتاريخ، في فترة المرحوم بومدين تركزت الكتابات بالدرجة الأولى على الحركة الوطنية، و المؤرخ الجزائري كان يتحاشى الكتابة عن الثورة التحريرية، حتى و إن تمت مناقشة الأطروحات في هذا المجال، الفرق بيننا و بين الأوروبيين و بالأخص الفرنسيين في كتابة مذكراتهم فلأنهم يحسنون استخدام القلم أما المجاهدون عندنا فكان أغلبهم أميون، و من كان يبحث عن الثورة الجزائرية كان يتجه بالضرورة نحو المراجع الفرنسية، و في طليعة هذه المراجع نجد المؤرخ ' إيف كوريير ' هذه المرحلة كانت الكتابات فيها شبه منعدمة و حتى وإن وجدت فيها الكتب عن الثورة فقد كانت مبهمة، و نستشهد هنا بالأستاذ محفوظ قداش و هو يروي أن الرئيس بومدين عاب عليه ذكر الأسماء في لقاء مع المثقفين و قال لا يجب ذكر الأسماء.

ينبغي علينا في هذه المراجعة أن لا نستثني حقبة من حقب تاريخنا الحديث و لا نمحوها جميعا، حتى لا يجعل أحد من تاريخ حكمه بداية تاريخ الأمة، كما ينبغي علينا أن لا نستأصل طرفا أو نغبنه أو نتجاهله فليس هدف المراجعة التجريح أو التدمير، و إنما الكشف عن عوامل التطور و الوحدة و التلاحم الفكري و إبرازها و تعميقها و توسيعها، لكن التاريخ تحمله أسماء ما نسميه بالفاعلين التاريخيين فالشعب في حاجة إلى من يقوده و يوجهه، ذلك هو تصور بومدين الذي كان يعقوبيا، لكن الثورة لها رجالها و مفكروها و منظروها و أنه لم يكن خوض غمار الصراع حول من قام و بماذا، و أن الجزائر في تلك المرحلة كانت في حاجة إلى من يلم شتاتها و يحافظ على وحدتها، بحاجة لبناء دولة تقوم على بناء الذاكرة و التأسيس للدراسات التاريخية.

برزت كتابات قيمة تنادي بإعادة كتابة تاريخ الجزائر بمناهج و رؤى جديدة، تعمل على دحض مجمل الكتابات الكولونيالية اللا موضوعية، و التي احتكرت كتابة تاريخ الجزائر لمدة طويلة، كان الهدف الأساسي منها تركيز سيطرة المستعمر و إضفاء صفة الشرعية على عمله الدبلوماسي و العسكري، و مع فجر الاستقلال بدأ الباحثون يدعون إلى كتابة تاريخ وطني:

- تاريخ يحاول إزالة الاستعمار عن تصور ماضي الجزائر بإبراز عيوب هذا النوع من الكتابة.

- تاريخ يحاول أصحابه إقناع أنفسهم بإمكانية كتابة تظهر شخصية الجزائر و تبرز مزاياه.

اعتمد هذا التيار طرقا مختلفة لإظهار عيوب الكتابة الاستعمارية و إبراز الحاجة إلى إعادة صياغة تاريخ وطني، و لكن أصحاب هذا الاتجاه مقتنعون بأن كتابة تاريخ الجزائر لن يتأتى إلا عن طريق البحث، حيث أن أحسن طريقة لجمع الوثائق و الاستفادة من النصوص هي تحديد مواضيع الأبحاث في مجالات زمنية أو مكانية ضيقة حتى يتسنى تعميق البحث، على أن يكون هذا العمل عملا مرحليا يتمم فيما بعد عندما تكون مناطق البلاد قد تمت تغطيتها، و كل الفترات التاريخية قد شملها هذا البحث فتكون تلك الأعمال خلاصة الأبحاث الأولية

واجهت هؤلاء الباحثين صعوبات جمة ذلك أن عملية تحقيق التراث لا ينبغي أن تنفصل عن المشكل العام للبحث التاريخي، الذي يعاني في الدرجة الأولى من ضعف وسائل و تقنيات البحث العميق، إذ كان استغلال المصادر المكتوبة ليس سهل المنال وهذه الوضعية ستستمر مدة أخرى، ما دامت برامج التاريخ لا تضم أي درس منهجي يعطي للطلاب مبادئ أولية لإدماج المصادر غير المكتوبة في حقل اهتماماتهم المستقبلية، أصبحت دراسة الماضي تقوم على رؤية متعددة المقاربات فبدل النظر إلى الوقائع التاريخية المدروسة من وجهة نظر أحادية، أصبح لزاما على المؤرخ استحضار كل العناصر و التي لها دور في بناء الوقائع التاريخية، فالظاهرة التاريخية تبنى لبنة لبنة، فكل بعد من أبعاد الواقع الاجتماعي يتواصل مع باقي الأبعاد الأخرى، لصناعة حركة التاريخ ودراسة التاريخ لا تنحصر فقط في معرفة الماضي، و إنما أن تسهم في فهم الحاضر بكل تعقيداته و مشاكله واستشراف مستقبل أفضل.

أهم ميزة يتميز بها هذا الاتجاه استغراقه في التاريخ السياسي و العسكري، و عنايته الفائقة بدراسة الأحداث من منظور متفرد و معزول، كل هذا في مسار زمني ضيق وقصير و هو زمن الحدث أما طريقته فـي عرض الوقائع فإنه يتم توظيف أسلوب الرواية و السرد، دون تمحيص و لا تدقيق معتمدين في ذلك على ما توفر لديهم من وثائق مكتوبة، تحـول اهتمام المؤرخين من دراسة الخاص إلى دراسة العام و من الجزء إلى الكل، و من الاهتمام بالفرد إلى الانكباب على دراسة المجتمع بكل فئاته و مكوناته الاجتماعية.

كتابة التاريخ هي عملية متجددة و مستمرة تتجدد بتجدد الهموم و المشكلات في الحاضر، فالإنسان لا يعيش حاضره مفصولا عن ماضيه، و لا يفكر في تاريخه باعتباره زمن غابر تملأه الأحداث و الوقائع بل بوصفه صيرورة في الزمن، فتفسير الماضي و تأويله و تكوين معنى عنه شكل دوما هاجسا، هذه الخلفية الفلسفية التي تحكم و توجه نظرة الإنسان إلى التاريخ، و علاقة ماضيه بحاضره هي التي نجد لها صدا في منهجية التفكير التاريخي عند المؤرخين المجددين، فعمل المؤرخ اليوم يتراوح بين ثنائية تشمل كل من الحاضر الذي يكتب فيه التاريخ و بين الماضي الذي يعتبر موضوع دراسته، تدريس هذه المادة و إيلائها مكانة متميزة و بخاصة التاريخ الوطني ليس من أجل فاعليته التربوية في تنشئة المتعلمين بل من أجل رفع شأنه أيضا، إذ أصبحت قيمة التاريخ مهزوزة في نفوس الكثير لغيابهم عنه ولأفاعيل المستعمر بأمتهم، حيث تعرض الشعب لفعل من المسخ الفظيع و الجهل المخيف هوة فصلته عن شخصيته وحجبته عن أصالته.

من هذا المنطلق يتجلى دور التاريخ عامة والوطني خاصة في تثمين التربية على المواطنة التي لن تؤدي مهمتها إن اعتبرت مادة في حد ذاتها بل أن مبادئها الأساسية تتم مقاربتها من التاريخ و من مواد أخرى، ناهيك عن الخبرات الشخصية و الأحداث اليومية عبر أنشطة في المدرسة وخارجها، وإذا كانت التربية على المواطنة تتلخص في مجهود المدرسة لتكوين الإنسان المواطن الواعي لحقوقه و واجباته تجاه ذاته و تجاه الجماعة، فإنها تستمد وظيفتها المجتمعية من مساهمتها في تكوين المواطن المراهن عليه في السير بالمجهود التحدثي للبلاد، وتقوية ركائز دولة القانون و تفعيل المفهوم الجديد للسلطة وتوسيع مجال الحريات و مشاركة المجتمع.

**المؤرخ و هاجس الكتابة التاريخية:**

ما يزال المؤرخ الجزائري أسير برجه العاجي حبيس كتبه و سجلاته، يمارس كتابة التاريخ وفق نمط تقليدي قائم على سرد الوقائع و جمعها في مصنفات، تظل في الغالب حبيسة الرفوف في المكتبات الجامعية و نادرا ما تقرأ، فالمتصفح للكتابة التاريخية الجزائرية سواء أكانت كتبا أو دراسات جامعية يلاحظ أن الكتابة التاريخية ما تزال حبيسة الرؤية التقليدية للتاريخ، موضوعا و منهجا رغم الدعوات التجديدية التي تظهر من حين لأخر.

آن الأوان ليخرج المؤرخون الجزائريون من أبراجهم العاجية و يطلون على مشكلات الحاضر، كمنطلق للبحث و التفكير في الماضي بغية المساهمة الفعلية في إيجاد حلول للمشكلات التي يعرفها الواقع الجزائري، دعوة صريحة إلى كل المهتمين بالكتابة التاريخية في الوطن لتجاوز التاريخ السردي، و العمل على تأسيس تاريخ نقدي يبحث في المشكلات الراهنة للمجتمع اعتمادا على مقاربة علمية و نقدية، لا ترى في دراسة الماضي هدفا في حد ذاته بل مدخلا لفهم أفضل لمشكلات الحاضر و أداة لإعادة بناء علاقة جديدة مع الزمن التاريخي.

لا تزال الكتابة التاريخية في الجزائر متخلفة لو قارناها بما وصلت إليه تونس و المغرب، أو وصلت إليه الكتابة التاريخية الغربية في أواخر القرن التاسع عشر و يعود ذلك إلى:

- العشوائية في الكتابة مما أدى إلى الإخلال بالروح العلمية في الكتابة التاريخية الجزائرية.

- انتشار مجال النظرة المقدسة وهو ما جعل المؤرخ الجزائري يسترخي متظللا بالصفحات الناصعة، مساهما هو نفسه في تطعيم مجال تلك النظرة و في إيجاد لحظات جديدة فيها.

- غياب النقد العلمي في الكتابة التاريخية الجزائرية على عكس ما هو حاصل في أوروبا، فالنقد العلمي بها جسد أسس المدارس التاريخية و واقعيتها.

هناك كتابات عديدة من أطراف مختلفة كلها تكتب التاريخ بمفهومها ووسائلها، هناك ندوات و ملتقيات حول التاريخ ولكن في أغلبها تفتقر إلى معايير البحث التاريخي، و دليل ذلك قلما نجد بحثا من هؤلاء نشر في مجلة مختصة على المستوى العالمي، ربما يمكن وصف المرحلة التي نحن فيها بمرحلة ردود الفعل لا تؤسس مدرسة تاريخية جزائرية، إنها بمثابة حوار بين الطرفين هم يقولون و نحن نقول، و لكي تظهر مدرسة تاريخية جزائرية يجب توفر عدة شروط، منها الباحث الكفء والمنهج العلمي والمناخ الحر الذي يتقبل النقد البناء بصدر رحب.

كثيرا ما تعرضت الكتابات التاريخية إلى المصادرة إذ شعر بالضرر من حكم التاريخ، والباحث المتمرس هو الأكاديمي أي أستاذ الجامعة الكفء الذي يحترم مهنته ويتبع ضميره هم قليلون، فالمؤرخ الذي يستعمل التاريخ لخدمة طرف ما هو كالشاعر الذي ينظم شعرا لينال به رضى البلاط، أما غير الأكاديميين فمن حقهم أن يكتبوا التاريخ برؤيتهم ولكن يجب أن يتأكدوا أن ما كتبوه هو ما يشبه التاريخ، إنه عمل للفائدة العامة أو الكشف عن جزيئات معينة لحادثة ما، فهناك اختصاصات كثيرة يمكن أن تساهم في كتابة التاريخ على هذا النحو.